

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز
(لفظ اليد مثلاً)

م.د أحمد حسن حطّاب

م.د زهراء عادل جاسم

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز
(لفظ اليد مثلاً)

المدرس الدكتور

أحمد حسن حطّاب

جامعة الكوفة / كلية التربية

المدرس الدكتورة

زهراء عادل جاسم

جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

**Qur'anic Expression Between Literal and Figurative Language (The Word
"Hand" as an Example)**

Lec. Dr. Zahraa Adel Jassim

University of Kufa, Faculty of Education for Girls

Lec. Dr. Ahmed Hassan Hattab

University of Kufa, Faculty of Education

المقدمة

الحمدُ لله كما يحبُّ أن يُحمد والصلاةُ والسلامُ على محمد وآل محمد

وبعد .

لم يكن الحديثُ عن الحقيقةِ والمجازِ حديثاً جديداً في علوم العربية بشكلٍ خاص وبقية العلوم بشكلٍ أوسع ، فمذ أزمانٍ خلتٍ قد كُتبتُ فيه البحوثُ والدراساتُ الأكاديمية وسواها ومع ذلك النتاج العلمي الوفير نجدُ متسعاً للبحثِ والتأملِ في هذا الموضوع (الحقيقة والمجاز) وخصوصاً إذا ما كان التطبيقُ في خيرِ كتابٍ أنزل على خير أمةٍ ، فالقرآنُ معينه لا ينضبُ وكلماته لا تتفدُ كما أرادَ له منزلهُ جلَّ علاه ، ولم نجانب الحقيقةَ إذا قلنا إنَّ الخوضَ في ألفاظ الحقيقةِ والمجازِ في القرآنِ يحتاجُ إلى مجلِّداتٍ في التأليفِ والتمحيصِ ؛ لذا آثرنا في بحثنا هذا اختيارَ لفظٍ واحدٍ ليكونَ ميداناً تطبيقياً لما نذكره من مادةٍ نظريةٍ ، وقد اصطفينا لفظَ اليدِ وخصوصاً في التعبيرِ القرآني المتعلق بالذاتِ الإلهية المقدَّسة ليكونَ مصداقاً للحقيقةِ والمجازِ ؛ لما يحمله من معانٍ باعتباره أحد الجوارح المهمة ، وإيماناً منا بأنَّ الدراساتِ المقارنة تعدُّ من السبل المهمة في البحثِ العلمي لما تقدّمه من مادةٍ أوفى ونتائج أسمى ؛ لذا جعلنا بحثنا هذا جامعاً بين اللغة العربية وعلوم الشريعة الإسلامية والقاسمُ بينهما القرآنُ الكريم ؛ لذا قضتُ خطّةُ البحثِ أن نرجعَ إلى الكتبِ والدراساتِ التي تلبّي حاجة البحثِ ، ومما يحسنُ ذكره هنا أننا تعرّضنا إلى مفهوم اليد من حيث التعرّف على معناه المعجمي واستعمالاته في القرآن الكريم ، ثم تطرّقنا إلى دراسة الألفاظ وفقاً لما وردت به من صيغ الأفراد والتثنية والجمع ، فضلاً عن

تعرضنا إلى ما أُضيف إليه من ضمائر الغائب والمتكلم والمخاطب ، وسيراً على الهدي المتعارف عيه في كتابة البحوث العلمية طويلاً صائف البحث بختمة ذكرنا فيها أبرز ما توصلنا إليه من نتائج ، ومما يجدر الإشارة إليه هنا إننا لم نطل الوقوف عند التفصيلات الدقيقة للآيات الكريمة ولم نختزل إلى حد عدم الوضوح بل اخترنا بين ذلك سببلاً وسطاً فلا تطويل ممل ولا إيجاز مخل ، بل جعلنا ما يقتضيه مقام البحث غاية مرادنا .

اللهم إن هذا جهدنا قدّمناه فإن كان فيه خيرٌ فمنّ منك ، وإن خلا من الفضل فبمَنك تتجاوز عن خطايانا ، فهو سعينا وليس للإنسان إلا ما سعى .

الكلمات المفتاحية :

الحقيقة ، المجاز ، التعبير القرآني ، المعنى ، الفهم الشرعي

مستخلص البحث باللغة العربية

إنّ المتتبع للآيات الذكر الحكيم يجد ألفاظاً واضحة في معناها ومفهومة في بيانها فلا يجد متلقي الخطاب مشقة في فهمها ، ومن جانب آخر نجد ألفاظاً يحتاج فهمها إلى تأويلٍ وتفسير يتناسب مع التراث اللغوي ويتوافق مع المعتقدات الدينية ؛ لأنّ حمل الألفاظ على معناها المتعارف عليه يتناقض مع قدسية الذات الإلهية ، ومثال ذلك لفظ اليد ، فهذا اللفظ الذي يدل معناه في أصل وضعه على الجارحة والكف ، فهذه المعاني تتعارض مع العقيدة الدينية السليمة ؛ لأنها تآبى تجسيم الذات الإلهية وتجسيدها التي تُنزّه عن هذه الأوصاف ، وإيماناً منا بأهمية تكامل العلوم جعلنا هذا

البحث جامعاً بين علمي اللغة العربية والشريعة الإسلامية ؛ ليكون أشمل وأكمل في تحقيق الغاية التي نصبوا إليها ، ومما يحسن الإشارة إليه أننا أفدنا من المصادر والمراجع التي لها صلة بالدراسات اللغوية والشريعة لإتمام متطلباته ، وقد توصلنا إلى نتائج في رحلتنا البحثية وقد وضعناها في الخاتمة ، ومن بين النتائج أن لفظ اليد في القرآن الكريم حمل معاني عدّة ، والأغلب من تلك المعاني تخرج عن معناها الحقيقي إلى معنى آخر يفهم من السياق القرآني ، فالسياق القرآني ركنٌ أساسٌ في فهم معناه ، أما لفظُ اليد المتعلق بالذات الإلهية فقد تنوّع وروده في القرآن ، وبتعددِ المواضع تنوّع معناه فمنها القوة ومنها النعمة وغيرها ممن أثبتناه في محله.

Abstract

A careful examination of the verses of the Holy Qur'an reveals expressions that are clear in meaning and readily understood, such that the recipient of the discourse encounters no difficulty in comprehending them. On the other hand, there are expressions whose understanding requires interpretation and exegesis that align with the linguistic heritage and are consistent with Islamic beliefs. This is because interpreting such expressions according to their conventional meanings may conflict with the sanctity of the Divine Essence.

An example of this is the term "hand." In its original linguistic usage, this term denotes a physical limb or palm; however, such meanings contradict sound Islamic doctrine, which rejects any anthropomorphism

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز
(لفظ اليد مثالاً)

م.د أحمد حسن خطاب

م.د زهراء عادل جاسم

or corporeal attribution to the Divine Essence, as God is exalted above such descriptions.

In recognition of the importance of the integration of disciplines, this study combines the fields of Arabic linguistics and Islamic jurisprudence in order to achieve a more comprehensive and complete understanding of the subject. It is also worth noting that a range of relevant linguistic and Sharia sources and references have been consulted to fulfill the requirements of this study.

The research has led to several findings, which are presented in the conclusion. Among the most significant is that the term “hand” in the Holy Qur’an carries multiple meanings, most of which extend beyond its literal sense to figurative meanings derived from the Qur’anic context. Indeed, context constitutes a fundamental basis for understanding Qur’anic expression. As for the usage of the term “hand” in relation to the Divine Essence, its occurrences in the Qur’an vary, and accordingly, its meanings also vary, including power, grace, and other meanings demonstrated in their respective contexts.

لفظ اليد بالقرآن الكريم

من الإحصاء الدقيق الذي قمنا به لمتابعة لفظ اليد بالقرآن الكريم بتصرفاته كافة لمعرفة مواضعه والسياق الذي ورد فيه وجدنا أنّ هذا اللفظ قد أُسْتُعْمِلَ في أربعة

وثمانين موضعاً ، وقد تتوّعت تلك المواضع بين الأفراد والتثنية والجمع فضلاً عن مجيئه بصيغٍ نحويةٍ متعددةٍ من حيث الرفع والنصب والجرّ ، وتقضي الضرورة العلمية أن نشير إلى أن بعضاً من المواضع قد جاءت في السياق القرآني الذي يتعرّض إلى ذكر العباد ، وبعضها الآخر في السياق الذي يتعرّض إلى ذكر المعبود ، وما يُعينا في دراستنا هذه هو الوقوف عند المواضع التي خرج فيها اللفظ عن معناه الحقيقي وأدى معنى آخر (المعنى المجازي) فيما يتعلّق بالذي لا معبود سواه ، ؛ لأهمية هذا الجانب سواء في الناحية اللغوية أم في الجوانب المرتبطة بعلوم الشريعة الإسلامية ، وهنا يقتضي الوقوف عند حدّ هذا اللفظ وفقاً لما دونته المعجمات العربية لنستطيع استجلاء المعاني الأخر (المجازية) ، ومن هنا سنقف عند معنى (يد) في اللغة .

اليد في اللغة .:

إنّ المنتبغ للمعجمات العربية على اختلاف أزمنتها سيجد أنها ذكرت المعنى اللغوي لهذا اللفظ ، ومما يُلاحظ أنّ أصحاب المعجمات قد أطالوا الوقوف عندها ؛ لما تتضمنه من معانٍ تستدعي الوقوف عليها ، فقد جاء في كتاب العين للخيل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى ١٧٥ هـ) في معرض كلامه عن بيان معنى الكف بأنه كفُّ اليد ، وفي موضع ثانٍ تحدّث عن جمع كلمة اليد وما تضمنته من معانٍ حيث ذكر أنّ جمع يد الإنسان والأشباح أيدي ، وجماع يد النعمة أيادٍ ويديّ ، قال: فإنّ له عندي يدياً وأنعماً ، ونقول: هم يدٌ واحدةٌ على من سواهم إذا كان

أمرهم واحداً ، ومما يُلاحظُ في ذا القول أنّ الخليل بن أحمد قد ساوى بين العضو الجسدي المعروف (اليد) عند بني البشر وعند الأشباح على حدّ تعبيره يُضاف إلى أنه ذكر المعاني التي يفيدها لفظُ اليد ، وإذا ما انتقلنا إلى لسان العرب لابن منظور (ت ٥٧١١ هـ) سنجدُ أنه أطال الوقوفَ عند هذه المفردة محلاً معانيها مسهباً في ذكر الشواهد عليها ؛ لذا سنقتبسُ مما أملاه بما يقعُ ضمن بحثنا هذا:

قال ابن منظور: ((اليَدُ: الكَفُّ، وقال أبو إسحق: اليَدُ من أطراف الأصابع إلى الكف، وهي أنثى محذوفة اللام، وزنها فَعْلٌ يَدِيٌّ، فحذفت الياء تخفيفاً فاعنَّبت حركة اللام على الدال ... والجمع أَيَدٍ، على ما يغلب في جمع فَعْلٍ في أَدْنَى العَدَدِ. ... اليَدُ أصلها يَدِيٌّ على فَعْلٍ، ساكنة العين، لأن جمعها أَيَدٍ وَيَدِيٌّ، وهذا جمع فَعْلٍ ... وقد جمعت الأيدي في الشعر على أيادٍ)) ، إذا تأملنا في هذا القول سنلاحظُ أنّ ابن منظور أراد باليد الكفّ ، ثم حدّد المراد باليد بأنّه من أطراف الأصابع إلى الكف، وهذا تحديداً لمكان ما يمكنُ أن يُطلقَ عليه (اليد) ، وبعد أن بيّن ابن منظور معنى اليد أخذ يوضّح المعاني التي يُوحى بها هذا اللفظ فقد أشار إلى أنّ العرب تقول: مالي به يَدُّ أي مالي به قُوَّة، ومالي به يَدان، وما لهم بذلك أَيَدٍ أي قُوَّة، ولهم أَيَدٍ وأبصار وهم أولو الأيدي

^٢ يُنظر : نفسه ٨ / ٤٤٥ .

^٣ لسان العرب ١٥ / ٣١٠ .

والأبصار . واليَدُ: الغنى والقدرة، تقول: لي عليه يَدٌ أي قُدرة.
ابن الأعرابي: اليَدُ التَّعْمَةُ، واليَدُ القُوَّةُ، واليَدُ
القُدرة، واليَدُ المُلْكُ، واليَدُ السُّلْطَانُ، واليَدُ الطَّاعَةُ، واليَدُ
الجَمَاعَةُ، واليَدُ الأَكْلُ؛ يقال: ضَع يَدَكَ أي كُنْ، واليَدُ النَّدَمُ ، من هذا يتضح أنَّ
معنى اليد يتجاوز مراده المؤلف (كَفُّ اليَد) ليفيد معاني أخر وهي : القُوَّةُ ،
القدرة ، الغنى ، النعمة ، المُلْك ، السلطان ، الطاعة ، الجماعة ، الأكل ، وهذه
المفرداتُ كُلُّها تُفيد دلالة التمكُّن من الشيء والسيطرة عليه . وإذا ما رجعنا إلى
الراغب الأصفهاني (ت ٥٥٠٣) لنلاحظ معنى هذا اللفظ في ضوء مفردات القرآن
الكريم سنجده يقول : ((يَدِي : اليَدُ الجارحةُ أصله يَدِي لقولهم في جمعه أُيْدٍ
وَيَدِي ، وأفْعَلٌ في جمع فَعَلٍ أَكْثَرُ ... وقولهم يَدَيَانِ على أن أصله يَدِي على
وزن فَعَلٍ ويديتهُ ضربتُ يده وأستعير اليَدُ للنعمةِ ف قيل يَدْتب إليه ، أي أسديتُ
إليه ، وتُجمَعُ على أَيَادٍ ، وقيل يَدِي ... وللحوز والملك مرة يقال هذا في يَدِ فلان
، أي: في حوزة وملكه... وللقوة مرة يقال: فلان يَدٌ ... ويقال وضع يده في كذا
إذا شرع فيه ، ويده مطلقه عبارة عن ايتاء النعم ... ويَدٌ مغلولة عبارة عن إمساكها
، ويقال نفضتُ يدي عن كذا ، أي خَلَيْتُ ... وقوله : ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ سورة ص ٤٥ إشارة إلى القوة الموجودة
لهم ... ويقال فلان يَدُ فلان أي : وليه وناصره)) ، ولعلَّ في هذا القول ما
يشبه ما ذكرناه سلفاً بأنَّ الأصلَ في معنى اليد هو ما يتبادرُ إليه الذهنُ فالمقصودُ

٤ يُنظر : نفسه ١٥ / ٣١١ .

٥ معجم مفردات ألفاظ القرآن ٦١٠ - ٦١٢ .

الجارحةُ المعروفة ، وهذا الأصلُ قد استبطنَ معاني ثانوية تتلخصُ بالقدرة ، والسلطانِ وغيرها مما ذُكر .

وإذا انتقلنا إلى مفسري القرآن الكريم سنجدُ كثيرين منهم يقفون عند لفظ اليد في القرآن الكريم بما ينسجمُ مع العقائد الإسلامية الحقّة والتي تتركزُ على صرفِ اللفظ من معناه الضيق إلى معانيه الواسعةِ وذلك في المواضع التي تقتضي تلك السعة في المعاني معللين ذلك بضرورة تنزيه الله من الصفات التي لا تليق بجلاله

6
مما سبق إيضاحه ، ومن متابعتنا لمعنى اليد يظهرُ لنا أنّ أصحاب المعجمات أسهبوا في ذكر المعاني الثانوية لهذا اللفظ وقد توسّعوا بذكرها ، ولا غرابة في ذلك فانصرافُ اللفظِ إلى معانٍ أخرى قد أُلِفَ عند العرب وابتغوا من ورائه مقاصدَ وعللاً ، ومن هنا سنقفُ لنبيّن انصرافَ اللفظ لمعانٍ غير معناه حسبما وجدناه في التراث اللغوي العربي ، والمفاهيم المستوحاة من علوم الشريعة الإسلامية المختلفة .

المجاز في التراث اللغوي الفهم الشرعي .

إنّ المتنبعَ للتراث اللغوي سيجدُ أنّ العربَ على تباينِ أزمنتهم وأمكنتهم قد اعتنوا أيّما عنايةً في استخدام اللفظ في غير ما وُضِعَ له في أصلِ معناه ، وقد أطلقوا على هذه تسميةَ المجازَ وأرادوا به : ((الكلمة المُستعملة في غير ما وُضِعَتْ له في

^٦ ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٦٤ ، التحرير والتتوير ٤ / ٢٥ - ٢٦ ، الميزان في تفسير

اصطلاح به التخاطب على وجه يصحُّ مع قرينة عدم إرادته ((^(٧))، فالأصل في المجاز أن تستعمل الكلمة في غير معناها الذي تعارف عليه الناس ، مع وجود ما يُشعرُ أنك لم ترد المعنى اللغوي الأصلي (الحقيقة) وإنما رمت المجاز ، أي: يقتضي وجود القرينة ، فالقرينة تكون هي الصارف عن الحقيقة إلى المجاز، إذ اللفظ لا يدلُّ على المعنى المجازي بنفسه دون قرينة ، وإذا اطلعنا على ما أفاده عبد القاهر الجرجاني سنلاحظ أنه يجعل المجاز من قبيل التأويل وهذا واضح من قوله: ((كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأويل))^(٨) ومثَّل له بقوله: نهارك صائم، وليلك قائم ، ولم يقتصر هذا المعنى عند القدماء فحسب بل نجده حاضراً عند المعاصرين فقد ورد في تعريف المجاز بأنه اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، والعلاقة: هي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وقد تكون المشابهة بين المعنيين، وقد تكون غيرها^١ ، ولا يختلف هذا التعريف عما سبقه ، فالمجاز وإن تباعد الزمن بين المؤلفين فلا تباعد في مفهومه بينهم ولا نبتغي الإطالة في شرحه وبيانه فهو موضوع له مواضع ، وعندما تكون الدراسة مقارنة بين علوم العربية والشريعة الإسلامية حريٌّ بنا أن نقف عند

(٧) بغية الإيضاح ٧٨/٣.

(٨) أسرار البلاغة ٣٤٨.

^٩ نفسه ٣٤٩

^١ ينظر : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ٢٥١

تعريف المجاز عند المشتغلين بالدراسات الإسلامية بمختلف تفرعاتها ليتبين لنا ما عنوه بهذا المصطلح .

قال الغزالي: ((المجاز ما استعملته العرب في غير موضوعه، وهو ثلاثة أنواع: الأول: ما استُعيّر للشيء بسبب المُشابهة في خاصية مشهورة، كقولهم: للشُّجاع أسد، وللبليد حمار، فلو سُمِّي الأبخر أسداً لم يجز؛ لأن البحر ليس مشهوراً في حقّ الأسد. الثاني: الزيادة، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فإنّ الكاف وُضِعَت للإفادة، فإذا اسْتُعْمِلَت على وجه لا يُقيد كان على خلاف الوضع، الثالث: النقصان الذي لا يُبطلُ النّفهيم، كقوله عز وجل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] والمعنى: واسأل أهل القرية. وهذا النقصان اعتادته العرب فهو توسّع (وتجوّز)^(١)، وقيل في بيانه بأنه اللفظ المستعمل فيما لم يُوضع له لغة، فالمتكلم يستعمل المجاز ويريدُ به معنى غير الموضوع له لقرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، لكن يوجد علاقة بين الحقيقة والمجاز ، وقد ورد أيضاً هو نقل المفرد اللغوي، أو التركيب من معناه الوضعي الذي أراده منه واضع اللغة، إلى معنى ثانٍ مجازي (بينه وبين المعنى الأول الوضعي مناسبة)، بقصد المبالغة في بيان المعنى الثاني أو توضيحه، وقيل: هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له،

(١) المستصفي للغزالي ص ١٨٦ .

^١ ينظر : الوجيز في أصول الفقه الإسلامي ٢ / ١٤ .

لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي ، من هذا يتضح عَدَم وجود تباين في معنى المجاز سواء في فهم المشتغلين في اللغة أم المشتغلين في علوم الشريعة الإسلامية فكل الفهمين ينصبّان على خروج اللفظ من معناه الوضعي إلى معنى آخر واشترطوا وجود القرينة على إرادة المعنى الآخر .

لَمَّا كان القرآن الكريم هو الأصل الذي تُستمدُّ منه التشريعات الإلهية وكذا الحال عند اللغويين فهو المنطلق الذي يلجأون إليه في استشهاداتهم أصبح لزاماً علينا أن نقف عند بعض ما قيل عن المجاز في أي الذكر التي اعتمدت المجازَ وبعدها ننقلُ إلى موضوعنا في استعمال اليد في غير معناه .

اتَّفَق جمهورُ العلماء على أنَّ القرآن الكريم قد استخدم أسلوب المجاز، ولم يَشُدَّ عن هذا إلا القليل-كما سنذكر- قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: ((إنما خاطب الله العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها))^(١) وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامًّا ظاهراً يُرَاد به العام الظاهر ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعامًّا ظاهراً يُرَاد به الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعامًّا ظاهراً يُرَاد به الخاص، وظاهر يعرف في سياقه أنه يُرَاد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها؛ لانفراد أهل علمها به دون أهل

^١ موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة ٥٤٩ .

(١) وهذا كان يُطلق على ما سُمِّي بعد ذلك بمصطلح المجاز.

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز

(لفظ اليد مثلاً)

م.د أحمد حسن حطّاب

م.د زهراء عادل جاسم

جهالتها، وتُسَمَّى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتُسَمَّى بالاسم الواحد المعاني الكثيرة^(١).

من خلال هذا القول نجد أنه لا يخرج عن معنى المجاز ، ومما يمكن وضعه هنا ما ذكره الغزالي بقوله : ((القرآن يشتمل على المجاز ، خلافا لبعضهم ، فنقول: المجاز اسم مشترك قد يُطَلَق على الباطل الذي لا حقيقة له، والقرآن مُنَزَّهُ عن ذلك، ولعلّه الذي أراده من أنكر اشتمال القرآن على المجاز))^(١)، وقال ابن حزم : ((لا يجوز استعمال مجاز إلا بعد وروده في كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم))^(١). وقال الفراء عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:]، فقال : ((السُّجُود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسُّجود؛ لأن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع))^(١) ، فنجده قد صرّف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى المجازي.

أما ابن تيمية فقد انكر ان يكون للغة وضع اول، وإن إنكاره أن يكون للغة وُضِعَ أوّل تفرّع عنه المجاز باستعمال اللفظ في غير ما وضع له كما يقول مُجَوِّزُو المَجاز؟! فالواضح من هذا أن مذهب ابن تيمية أن اللغة إلهام من الله، وليست وضعية، ، وينفي بشدّة أن يكون جماعة من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على وضع

(١) الرسالة ،تحقيق أحمد شاكر، ص ٥١ ، ٥٢.

(١) المستصفي للغزالي ص ٨٤.

(١) البحر المحيط ٥٠/٣

(١) معاني القرآن للفراء ٢٣١/١

المسميات وتعيينها للدلالة على المراد منها، ويرى أن كل لفظ قد استعمل ابتداء فيما أريد منه دون أن يكون هناك وضع سابق على الاستعمال، والذي دعاه إلى هذا نفي المجاز نفسه، لا في القرآن الكريم فحسب، بل فيه وفي اللغة بوجه عام، لأنه رأى مجوزي المجاز يقولون: إن المجاز ما نقلت فيه الكلمة من المعنى الوضعي فاستعملت في المعنى غير الوضعي، وهذا النقل هو ركن من أهم أركان المجاز، وإن احتاج بعد النقل إلى علاقة وقرينة.

والجواب: أن ابن تيمية قد خالف في كلامه أطبق عليه علماء الأمة في كل زمان ومكان، وفي كل فرع من فروع علم اللغة، قواعد وتطبيقات، فقد أدرك الرؤاد الأوائل وغيرهم حقيقة الوضع الأول والخروج عليه، ومنهم من أشار إليه معنى بغير لفظه، ومنهم من نص عليه نصاً صريحاً.

أما الأصل الثاني الذي تُستمد فيه التشريعات فهو الحديث النبوي الشريف والمتتبع فيه سيلحظ جلياً اعتماد المجاز في ألفاظه، وحسبنا في ذا المقام ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم ((لَا تَتَّبِعُوا الدِّيَّانَرَ بِالدِّيَّانَرِينَ وَلَا الدِّرْهَمَ بِالدِّرْهَمِينَ وَلَا الصَّاعَ بِالصَّاعِينَ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرَّمَاءَ))^(١) فأراد بالصَّاع ما فيه بإطلاق اسم المَحَلِّ على الحَالِّ، وهذا ضرب من ضروب المجاز .

ومن نافلة القول أن نذكر أن المهتمين في اللغة قد أطالوا الوقوف عند المجاز منذ بدايات التأليف وإلى يومنا هذا وما المعجمات اللغوية إلا تجسيدا لفكرة جمع الألفاظ ومدلولاتها، وإذا ما تأملنا في (أساس البلاغة) سنجدُ ذكراً لبعض الاستعمالات

(١) رواه أحمد في مسنده ١٠٩/٢، معجم الزوائد ٤/١١٣.

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز

(لفظ اليد مثلاً)

م.د أحمد حسن حطّاب

م.د زهراء عادل جاسم

المجازية بعد كل مادة يفرغ من ذكر دلالاتها الوضعية، وتابع الزمخشري بعض العلماء كابن السكيت والثعالبي (٢).

وبعد ما تم ذكره أضحى واضحاً أنّ المجاز واقِع في القرآن، وفي السُنَّة، وفي اللُّغة حيث يطالبه المقام ويقتضيه ، وسنعرّض للآيات الكريّمات التي اعتمدت أسلوب المجاز في لفظ اليد الذي وردت في السياق القرآني الذي يتحدّث عن الذات الإلهية .

أشرنا في بداية بحثنا هذا أنّ لفظ اليد ورد في أربعةٍ وثمانين موضعاً من الذكر الحكيم ، أما ما ورد في السياق المتعلّق بالذات الإلهية فقد بلغ عدد تلك المواضع اثنا عشر موضعاً ، ومما يُحسن أن نذكره هنا هو بيان الصيغ التي ورد بها في السياق القرآني لتنتضح لنا مدلولات اللفظ بصورة جلية .

اعتمد القرآن الكريم صيغة المفرد المضاف إلى لفظ الجلالة (يد الله) في أربعة مواضع ، والصيغة ذاتها (المفرد) مضافة إلى الضمير سواء الغائب الذي وجدناه في أربعة مواضع أيضاً، أم الضمير المضاف إلى المتكلم فقد كان له نصيب من الوجود في القرآن في موضع واحدٍ لا غير ونحسب من الضرورة ذكر تلك المحال بمخطّط توضيحي ليكون أقرب إلى الفهم: .

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾	73	آل عمران
﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾	64	المائدة
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ	10	الفتح

إذا أنعمنا النظرَ في الآياتِ البيِّناتِ التي تضمَّنتَ تعبيرَ (يَدِ اللَّهِ) سيظهرُ لنا بشكلٍ لا غموضَ وفيه ولا لبسٍ إنّما أريدَ باليدِ معانٍ ثانويةً وليس المعنى الضيق الذي ألفناه في الأصل اللغوي لليد ، فليس المراد الكفُّ أو الجارحةُ فذاك مُحالٌ عليه عزَّ جلاله وإنما ابتغت الآياتُ مدلولاتٍ أُخرَ سنتعرّفُ عليها مما أملاه المفسرون ومن متابعة السياق القرآني الذي يعيننا في الوقوف على المعنى الأقرب.

إذا أنعمنا النظرَ في الموضعِ الأول من الذكر الذي حمل تعبيرَ (يَدِ اللَّهِ) سنجد أنه ورد في قوله جلَّ شأنه : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران ٧٣ ، ونحن نلاحظُ التعبيرَ القرآني جاء مصحوباً بالأمر ، وللأمرِ دلالاته في الاستعلاء ، أما معنى اليد في هذا الموضع فلا يُرادُ بها الجارحةُ أو الكف ، إنما يُرادُ بها الملك ، فلو تتبعنا السياق القرآني لوجدنا ألفاظَ الإتيان والسعة والعلم وكلها تتوافقُ مع معنى الملك ، ولإحاطةِ نقتبسُ بعضاً مما أملاه المفسرون في ذا الموضع ليكون أقرب إلى الفهم .

قال الرازي (ت ٦٠٦ هـ) : ((وَقَوْلُهُ بِيَدِ اللَّهِ أَيِ إِنَّهُ مَالِكٌ لَهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ أَيِ هُوَ تَفَضُّلٌ مَوْقُوفٌ عَلَى مَشِيئَتِهِ)) ، ولم يخف أبو حيان الأندلسي تصرّحه بأن التعبير القرآني (يد الله) من ضروب الكناية التي يوحى بمعنى الملك ، فقال : ((فَأَلْفُضْلٌ هُوَ بِيَدِ اللَّهِ .أَيِ :مُتَصَرِّفٌ فِيهِ كَالشَّيْءِ فِي الْيَدِ، وهذه كناية)) ، وإلى مثله ذهب مفسر ثانٍ حين بيّن أن يد الله ((أي : الأمور كلها تحت تصرفه ، وهو المعطي المانع)) ، وقد أحسن المفسرون صنعا حين جعلوا معنى التعبير القرآني منسجماً مع الفهم الشرعي لهذا التعبير القرآني وبما يتماشى مع المعاني التي تحتفظها الألفاظ القرآنية المستوحاة من التراث اللغوي السليم .

أما إذا وقفنا عند الآية التي تحدّثت عن مغلولية اليد سنجدُ المفسرين وقفوا عندها متأملين معانيها مصرّحين بأنها غادرت معناها الحقيقي (الجارحة) إلى معنى آخر ؛ فاليدُ الجارحةُ لا تليقُ به جلاً شأنه ، وسنعرّضُ الآيةَ ثم نعبّرُ عليها حسبما عنّ لنا من التفاسير الكريمة.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمْ

٢ مفاتيح الغيب ٨ / ٢٦١

٢ البحر المحيط ٣ / ٢١٧

٢ تفسير ابن كثير ٢ / ٥٩ .

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿ المائدة ٦٤ .

قال القرطبي (ت ٦٧١هـ) في معرض حديثه عن الآية محل حديثنا : ((الْيَدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَكُونُ لِلْجَارِحَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِعْفًا ﴾ ص: ٤٤ هذا مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَكُونُ لِلنَّعْمَةِ، نَقُولُ الْعَرَبُ: كَمْ يَدٍ لِي عِنْدَ فُلَانٍ، أَي كَمْ مِنْ نِعْمَةٍ لِي قَدْ أَسَدَيْتُهَا لَهُ، وَتَكُونُ لِلْقُوَّةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَذُكِّرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ سورة ص: ١٧، أَي: ذَا الْقُوَّةِ وَتَكُونُ يَدَ الْمَلِكِ وَالْقُدْرَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ آل عمران: ٧٣، وَتَكُونُ بِمَعْنَى الصِّلَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ يس: ٧١ ، أَي : مِمَّا عَمَلْنَا نَحْنُ. وَقَالَ: أَوْ يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ الْبَقْرَةَ: ٢٣٧ أَي : الَّذِي لَهُ عُقْدَةُ النِّكَاحِ. ... فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْجَارِحَةِ، لِأَنَّ الْبَارِيَّ جَلَّ وَتَعَالَى وَاجِدٌ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّبْعِيضُ)) ، وهذا القول واضح لا لبس فيه ولا غموض ، فالتفسير اللغوي للفظ اليد قد اتسع في دلالاته فغادر معناه الضيق (الجارحة) ليتسع لمدلول آخر تقتضيه العقائد الإسلامية الصحيحة ، وإذا توسعنا بذكر التفاصيل لعلمنا لا نلقى غير ما جاء به القرطبي لكن ما يحسن أن نضعه هنا هو بيان العلة التي أختير بها تعبير ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾ ، فقد ذكر ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) أن السياق يتحدث عن وصف البخل في العطاء ، فالعرب يجعلون العطاء معبراً عنه باليد ، ويجعلون بسط اليد استعارةً للبذل والكرم ، ويجعلون ضدَّ البسط استعارةً للبخل ، فيقولون: امسك يده، ولم نسمع

منهم غلَّ يده إلا في القرآن ، وهذا قولٌ يستحقُّ التأملَ والتدبر فيه ؛ فلفظُ الغل الذي نُسبَ ليد الله لم يكن مألوفاً بمعناه الحالي قبل استعماله في القرآن ، وإذا انتقلنا إلى صاحب الميزان نجد أنه فسّر المعاني بما يتناسبُ مع السياق ، فاليهودُ الذين تكلموا بهذه الكلمة الأثيمة إنما عنوا الرزق المختص بالمؤمنين ؛ لما في عامتهم من الفقرِ الشاملِ والعسرةِ وضيقِ المعيشةِ، وقالوا هذا القولَ استهزاءً بالله سبحانه إيماءً إلى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به وإنجائهم من الفقر والمذلة، لكن هذا الوجه لا يناسب ؛ لأنَّ المسلمين كانوا يوم نزولها على خصبٍ من العيش وسعةٍ من الرزق ورفاهيةٍ من الحال، وإما أنهم إنما قالوها لجذبٍ أو غلاءٍ أصابهم فضاقتُ بذلك معيشتهم، ونكدت حالهم، واختل نظام حياتهم، وهذا الوجه أيضاً يأباه سياق الآيات فإن الظاهر أن الآيات إنما تتعرض لشتات أوصافهم فيما يعود إلى عدوانهم ومكرهم بالنسبة إلى المسلمين نقمة منهم لا ما صدر منهم من إثم القول، وقد يكون قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ؛ لأنهم سمعوا أمثال قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ البقرة ٢٤٥ و ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الحديد ١٨ ليكون ردّاً على عدم القدرة على تحصيل ما ينفق في حوائجه لترويج دينه وإحياء دعوته ، وقد جاء هذا القولُ سخريّةً واستهزاءً ، وهذا الوجهُ أقربُ إلى النظر .

^٢ ينظر : التحرير والتنوير ٤ / ٢٥ .

^٢ ينظر : الميزان في تفسير القرآن ٦ / ٣٢ ، التحرير والتنوير ٤ / ٢٥ .

وإذا ابتغينا الحديث عن كيفية توظيف القرآن الكريم للمجاز في هذه الآية المباركة ليجمع بين براعة اللغة وافهم الشرعي الذي يقتضي صرف اليد عن حقيقتها فيما كنا القول :

إنَّ براعة البيان القرآني تجلّت في توظيف المجاز توظيفًا كاشفًا لفساد المعنى ومقوّمًا له في آنٍ واحد، فقولهم: (يد الله مغلولة) ليس حملًا على الحقيقة، تعالى الله عن ذلك، وإنما هو مجاز يراد به نسبة البخل أو الإمساك إلى الله جلّ شأنه، إذ جرت عادة العرب أن تعبّر باليد عن القدرة والعطاء، فإذا وُصفت بالغلّ دلّ ذلك على المنع والتقييد، فهم لم يريدوا إثبات الغلّ لليد حقيقة، بل أرادوا لازم ذلك، وهو تضيق العطاء، فجاء كلامهم متلبّسًا بصورة حسية توهم التقييد لتؤدي معنى معنويًا فاسدًا.

غير أنّ النظم القرآني لم يكتفِ بنقض قولهم تصريحًا، بل قابله بأسلوب أبلغ، إذ ردّ عليهم بقوله: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)، فكان هذا التعبير في ذاته مجازًا أيضًا، يراد به الدعاء عليهم بالبخل أو الإخبار عن استحقاقهم له جزاءً وفاقًا، فجاء الجزاء من جنس القول، وانقلب المعنى عليهم قلبًا بديعًا، حيث صار الوصف الذي ألصقوه برئهم لائقًا بهم هم، وفي هذا التقابل الفني تتجلّى صورة من أرقى صور البلاغة، إذ يُستعمل اللفظ ذاته ليؤدي معنيين متقابلين: أحدهما باطل في جانبهم، والآخر حقّ في حقهم جزاءً وعقابًا.

وتظهر قدرة التعبير القرآني على إدانة الفكرة لا بمجرد ردّها، بل بإعادة صياغتها على نحو يفضحها ويسقطها في آنٍ واحد، وأنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء بالله سبحانه إيماء إلى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به وإنجائهم من الفقر والمذلة، لكن هذا الوجه لا يناسب وقوع الآية في سورة المائدة إن كانت نازلة في مطاوي سائر آياتها فإن المسلمين كانوا يوم نزولها على خصب من العيش وسعة

من الرزق ورفاهية من الحال، وإما أنهم إنما قالوها لجذب أو غلاء أصابهم فضاقت
بذلك معيشتهم، ونكدت حالهم^(١).

ومعنى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) إن وصف اليدين بالبسط هنا ليس إثباتاً لجوارح
جسدية، بل هو استعارة تمثيلية لتدفق النعم التي لا يمسكها حابس، وتنتية اليد (يداه)
تأتي لتوكيد كمال الكرم، وكان العطاء يفيض من كل جهة بلا انقطاع، ((أي هو
الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه))^(٢) وهي
صورة مقابلة تماماً لصورة "الغل" (يد الله مغلولة) التي ادعاها المنكرون لتصوير
الشح ، أما إضافة اليد إلى هاء الغيبة العائدة على الذات الإلهية، فهي إضافة
تشريفٍ واختصاصٍ، تؤكد أن مصدر هذا الفيض هو الخالق وحده، فتتحول اليد في
هذا السياق من معناها الحسي إلى رمز للقدرة النافذة والنعمة السابغة التي لا تُحد،
بأسلوب يجمع بين جلال المعنى وجمال العبارة.

وإذا انتقلنا إلى قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ سورة الفتح ١٠ .

رأى كثيرٌ من المفسرين في - حدودِ اِطْلَاعِنَا - ضرورةً تأويل هذه الآية ، أي:
صرفُها عن معناها الظاهري لئلا يد إلى معنى آخر يتوافق مع السياق ؛ أما العلة التي
تحتّم صرف اللفظ عن معناه لأنّ هذه الصفات لا تليق بجلاله، فيؤولون اليد هنا
بـ القوة أو القـ

أي :قوة الله-تبارك وتعالى -وقدرته ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم، كما يقال :اليد

(١) ينظر : الميزان في تفسير القرآن ٦ / ٣٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : . ٧٥ / ٢ .

ففي هذه المسألة لفلان، أي: الغلبة والنصرة له،
أو المعنى: يد الله -تبارك وتعالى- بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق
أيديهم، والمقصود بهذه الجملة زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والثبات، يَدُ اللَّهِ
بِالْوَفَاءِ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ فَوْقَ أَيِّدِهِمْ.
وَيَدُ اللَّهِ فَالْوَفَاءِ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ فَوْقَ أَيِّدِهِمْ.

وقيل: نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الْهُدَايَةِ فَوْقَ مَا صَنَعُوا مِنَ الْبَيْعَةِ ، ومن هنا أُسْتُعِين^٩
بالسعة اللغوية لمفردة اليد لتأويل الآية بما يتوافق مع العقيدة التي يؤمن بها
المسلمون ، فالتظافر بين اللغة والمسائل الشرعية حاضرٌ هاهنا لنصل إلى تفسير
يتوافق مع الإرث اللغوي والعقيدة الدينية ، ف (يد الله هنا) استعارة مكنية، شبه تعالى
نفسه بالمبايع وأثبت له ما هو من لوازم المبايع حقيقة وهو اليد على طريق الاستعارة
المكنية الأصلية، وفي إثبات اليد لله تعالى والله منزه عن الجوارح عن صفات
الأجسام لتأكيد معنى المشاكلة، ولا نغالي إذا ذكرنا أن جُلَّ عناية المفسرين هو
صرف اللفظ (اليد) عن معناه المادي الملموس لتعارضه مع العقائد والعقل
ومحاولة التماس معاني أقرب إلى واقع الحال ، ومن هنا أَلْتَمَسَ صاحب الميزان
رحمه الله وجوهاً عدّة ذاكراً أن الآية لا تخلو من إيماء إلى أن النبي صلى الله عليه
وآله وسلم كان عند البيعة يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس
وللمفسرين في قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَالْوَفَاءِ بِمَا وَعَدَهُمْ﴾ أقوال أخر.
فقيل: إنه من الاستعارة التخيلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه وتقرير

^٩ ينظر : تفسير ابن كثير ٢٦ / ٥١٢ ، تفسير البغوي ١٠ / ٤٨ .

أن مبايعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كمبايعة الله من غير تفاوتٍ فخيّل أنه سبحانه كأحد المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم مكان يد الرسول وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيّل على وجهه هـ و منزه عنه. وقيل: المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي ثق بنصرة الله لا بنصرتهم. وفيه أن المقام مقام إعظام بيعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن مبايعتهم له مبايعة لله، والثوق بالله ونصرته وإن كان حسناً في كل حال لكنه قيل: المراد باليد العطية والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة، وقيل: نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها ، وبصرف النظر عن المعنى الأقرب للساق القرآني فالمهم هو سعة اللفظ في معناه ليلبغ مراده وفقاً لمقتضيات الفهم الشرعي المتمثل عدم التجسيم والتجسيد.

وكما تجلّى البيان القرآني واضحاً في الآية السابقة في تعبير لفظ (يد الله) قد ظهر لنا التجلّي تارةً أخرى في (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) في أفقٍ بيانيّ رفيع، فهي ليست يدًا على حقيقتها الحسيّة، إذ تعالى الله عن الجوارح والأعضاء، وإنما هي مجازٌ مرسل أو استعارة يُراد بها معنى العناية الإلهية والتأييد والنصرة والعهد، وقد أضيفت

^٢ ينظر : الميزان في تفسير القرآن ١٨ / ١٤٤ .

(اليد) إلى اسم الجلالة إضافة ظاهرة، فجاءت مضافةً إلى ضميرٍ جليلٍ ظاهرٍ في دلالاته، وهو لفظ (الله)، وفي هذه الإضافة تشريفٌ للمعنى وتعظيمٌ للمقام، إذ تُنسب (اليد) إلى الذات العليّة لا على جهة الحقيقة، بل على جهة المجاز الذي يرفع المعنى من الحسّ إلى الدلالة الروحية، وجعلها (فوق أيديهم) رسمٌ تصويريٌّ بديع، يُوحى بعلوّ هذا العهد الإلهي وسموّه، فكأن أيديهم حين تلتقي في البيعة إنما تعلوها يدٌ أعلى وأسمى، هي يد الله بمعنى عهده وتأنيده، فتغدو البيعة محاظة برعاية إلهية تحكمها وتعلو عليها، لا من حيث الجهة الحسية، بل من حيث المنزلة والقدر، بهذا الأسلوب ينتقل المعنى من مجرد حركة أيديٍ متقابلةٍ إلى ميثاقٍ ربانيٍّ محكم، تُجسّده العبارة في صورة حسية موحية، وتُثبّت في النفس هيبة العهد وجلاله، وكما فسرها ابن عاشور أيضاً بالمبايعة بقوله: ((وَجُعِلَتِ الْيَدُ الْمُتَخَيَّلَةُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ: إِمَّا لِأَنَّ إِضَافَتَهَا إِلَى اللَّهِ تَقْتَضِي تَشْرِيْفَهَا بِالرَّفْعَةِ عَلَى أَيْدِي النَّاسِ كَمَا وُصِفَتْ فِي الْمُعْطِي بِالْغُلْيَا ... وَإِمَّا لِأَنَّ الْمُبَايَعَةَ كَانَتْ بِأَنَّ يَمُدَّ الْمُبَايِعُ كَفَّهُ أَمَامَ الْمُبَايِعِ بِالْفَتْحِ وَيَضَعُ هَذَا الْمُبَايِعُ يَدَهُ عَلَى يَدِ الْمُبَايِعِ، فَالْوَصْفُ بِالْفَوْقِيَّةِ مِنْ تَمَامِ التَّخَيُّلِيَّةِ)) (١).

ونقفُ عند الموضع الأخير الذي ورد به التعبيرُ القرآني (يد الله) بصيغة المفرد، حيث قال عزٌّ من قائل: ﴿لَيْتَآ يَعْْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ سورة الحديد ٢٩.

قال الزمخشري موضحاً المراد من هذا التعبير: ((بِيَدِ اللَّهِ فِي مَلِكِهِ وَتَصَرُّفِهِ، وَالْيَدُ مِثْلُ ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَلَا يَشَاءُ إِلَّا إِيْتَاءٌ مِنْ يَسْتَحِقُّهُ)) (٢)، أما الفخرُ

(٢) التحرير والتتوير: ١٣٣.

٢ الكشّاف ٤ / ٢٧٦.

الرازي فلم يغب عنه معنى التملك الذي حواه تعبير (بيد الله) فهو مالك الفضل والمتصرف فيه حسبما تقتضيه حكمته ، ومن هنا قال: ((وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ أَي فِي مَلِكِهِ وَتَصَرُّفِهِ وَالْيَدُ مِثْلُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ لِأَنَّهُ قَادِرٌ مُخْتَارٌ يَفْعَلُ بِحَسَبِ الْإِخْتِيَارِ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالْعَظِيمُ لَا بُدَّ وَأَنَّ يَكُونَ إِحْسَانُهُ عَظِيمًا ، وَالْمُرَادُ تَعْظِيمُ حَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نُبُوتِهِ وَشَرْعِهِ وَكِتَابِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَالْإِيَّهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ)) ، فالمعاني المتعلقة باليد في هذا الموضوع تدور حول الملك والتصرف فيه ، وقد اختزل القرطبي (٥٦٧١) هذا المعنى بأسلوب تعبير صريح بعيد عن التطويل حيث ذكر قولاً موجزاً في ألفاظه عميقاً في مراده فقد بيّن أنّ التعبير القرآني (بيد الله) في الآية الكريمة يفيد الملك فقال: ((أي هو له يؤتيه من يشاء)) ، أما الإعجاز القرآني الذي مزج بين براعة التعبير وبين الفهم الشرعي العميق لإزالة الألفاظ عن معانيها الأولية واقتربها من معانيها الباطنية فقد ظهرت الصورة البيانية الرفيعة التي تُصاغ فيها المعاني المعنوية في قالبٍ حسيٍّ يقربها إلى الذهن، ويُرسخ حقيقتها في النفس، فلفظ (بيد الله) ليس على ظاهره الحسي، إذ لا يُراد به الجارحة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما هو مجازٌ مرسل يُراد به معنى القدرة والاختصاص والتصرف؛ فكان الفضل كله محصوراً في قبضته سبحانه، يُصرّفه كيف يشاء، ويمنحه لمن يشاء، بلا

^٢ مفاتيح الغيب ٢٩ / ٤٧٦

^٣ الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٣٩ .

معارضٍ ولا مانعٍ ، فذكرُ (اليد) هنا إنما هو استعارةٌ حسيّةٌ تُجسّد المعنى المعنوي، لتصوير الفضل كشيءٍ يُمسك ويُمنح، فيقع في النفوس موقعًا أبلغ من مجرد التصريح بأنه بقدرة الله.

وقد يكون من المناسب أن أذكر أن المواضع الأربعة التي جاء فيها تعبيرُ (يد الله) قد كان السياقُ القرآني في أول المواضع يتركزُ حول فضلِ الله وذلك في قوله عز من قال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ آل عمران ٧٣، وقد أخذت تلك المواضع بالتعبير ذاته .

بعد هذه الجولة في ثنايا التفاسير القرآنية للبحث عن مراد التعبير القرآني (يد الله) وجدنا أن المفسرين لم يخرجوا عن المعاني التي ذكرها المعجميون المتعلقة باتساع معنى اليد وخروجها عن معناها المتواضع عليه ، فقد أدّى هذا اللفظ مدلولاتٍ مستوحاة من السياق القرآني الذي وردت فيه ، فالسياق هو الركيزة الأساس في استجلاء المعاني الثانوية لليد والتي تتوافق مع الفهم الشرعي المستند إلى أصول اللغة ، وأجد من المناسب أن أذكر في هذا الموضع مجيء آية قرآنية كريمة في سورة الحجرات قد اعتمدت تعبير (يدي الله) حيث أضافت التعبير الذي يوحى ظاهره بالمتى إلى لفظ الجلالة ، لذا سنعرض له بما يتوافق مع موضوع بحثنا .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الحجرات : ١)

فعبارة (بين يدي الله) ليست على ظاهرها، فلا يُراد بها إثبات يدٍ بالمعنى الجارحي، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، إذ إنّ الله سبحانه منزّه عن الأعضاء والحدود، وإنما

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز

(لفظ اليد مثلاً)

م.د زهراء عادل جاسم

م.د أحمد حسن حطّاب

هو مجازٌ مرسلٌ أو كنايةٌ بليغةٌ يُرادُ بها معنى السبق والمخالفة والتقدّم على أمر الله ، فالتعبيرُ جاء على سبيلِ التصوير، إذ صُوِّر الأمر كأنه موقفٌ يُتقدّم فيه بين يدي من له الأمر والنهي، للدلالة على شدة القبح في المبادرة بالقول أو الفعل قبل حكم الله ورسوله.

وأما إضافة (اليد) إلى لفظ الجلالة (الله)، فهي إضافة تشرّيفٍ في الظاهر، لكن المقصود منها هنا ليس إثباتُ صفةٍ حقيقية، بل استحضار هيبته المضاف إليه، وتأكيد علوّ مقامه، بحيث يُفهم أن التقدّم المذكور إنما هو تقدّم على حكم الله وأمره، لا على ذاتِ يدٍ حسية، فالإضافة هنا تُحوّل المعنى من صورةٍ حسية متخيّلة إلى دلالة معنوية قائمة على التعظيم والامتثال.

إضافة لفظة (يد) إلى الضمائر

إذا تأملنا في آيات الذكر الحكيم لمتابعة لفظ اليد سنجدُ أن هذا اللفظ أُضيف إلى الضمائر، ومنها ضمير الغائب (الهاء) ، و (يا المتكلم) ، و (كاف المخاطب) ، وستعرضُ لهذه المواضع حسبما يتناسبُ مع المقام .
يحسنُ بنا أن نشير إلى أن التعبير القرآني للفظ اليد المقترن بضمير الغائب (الهاء) جاء في ثلاثة مواضع سنذكرها في ذا المخطط الموجز لتكون أقرب إلى الفهم .

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾	88	المؤمنون
﴿تَعْلَمُونَ﴾		
﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	83	يس
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	1	الملك

سنقفُ عند هذا المواضع بما يحقق مراد البحث وغايته.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٨٨)

جاء التعبير القرآني (بيده ملكوت كل شيء) الملكوت دلالة على التصرف والسيطرة ، أي : متصرف فيها وهو الخالق المتصرف (١) ، يُجسّد المعاني الغيبية في صورة محسوسة، لا على سبيل الحقيقة، بل على سبيل المجاز الذي يرفع الإدراك ويُعمّق الدلالة، فالتعبير (بِيَدِهِ) ليس مقصوداً به المعنى الحسي للجارحة، تعالى الله عن ذلك، وإنما هو مجازٌ مرسلٌ تُستعار فيه (اليَد) للدلالة على القدرة التامة والملك الشامل والتصرّف المطلق فكأن ملكوت كل شيء موضوع في قبضة القدرة الإلهية، يُدبّر سبجانه كيف يشاء، بلا معارضٍ ولا مانعٍ ، وهذا التصوير يقرب المعنى إلى الذهن، إذ يُحيل المجرّد إلى صورةٍ محسوسةٍ تُدركها النفس، فتشعر بتمام السيطرة والهيمنة الإلهية ، وأمّا إضافة (اليَد) إلى ضمير الغائب (الهَاء) في قوله (بيده) فهي إضافة تدلّ على الاختصاص والتمكين، إذ يُفهم منها أن هذا الملك العظيم مختصّ به سبجانه دون سواه، فجاء الضمير العائد عليه ليشير إليه إشارةً قريبةً في الذهن، مقرونةً بالهيبة والتعظيم، وهذه الإضافة تُكسبُ التعبيرَ قوّةً في الإيحاء، لأنها تجعلُ الفعلَ (الملك والتصرّف) متعلّقاً بذاتٍ واحدةٍ متفرّدةٍ بالقدرة، فالمعنى إذن ليس إثبات يدٍ على الحقيقة، وإنما هو تصوير بلاغي يرسم صورة القدرة الإلهية كأنها يدٌ قابضة على كل شيء، لتأكيد شمول الملك وكمال السيطرة.

وننقلُ إلى موضعٍ ثانٍ من الذكر الحكيم الذي جاء التعبيرُ القرآني فيه حاملاً لفظ اليد المضاف إلى ضمير الغائب حيث قال عزّ من قائل : ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة يس: ٨٣)، تتكرر البنية نفسها: "بيده"، لكن مع تعبير أوسع هو "ملكوت"، وهو صيغة مبالغة تدل على تمام الملك وعمقه وباطنه، فلفظة "يده" مضافة إلى ضمير الغائب (هـ)، وهذه الإضافة من حيث الأصل تغيد النسبة والاختصاص. فإذا حُمِلت "اليَد" على الحقيقة الحسية (الجارحة)، لزم من إضافتها إلى الله تعالى إثبات عضو، وهذا غير مراد، فيتعين صرفها إلى المجاز، وعند المجاز، تصبح الإضافة إضافة معنوية، فيكون الضمير عائداً إلى الله تعالى بوصفه صاحب القدرة المطلقة والتصرف الشامل، وذهب الرّازي إلى مثل هذا المعنى: ((الما

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: ٤ / ٣٤٧.

تقررت الوجدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة ، قال تعالى ، وتنزّه عن الشريك : (الذي بيده ملكوت كل شيء) وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكاً^(١) ، فالمعنى: بيده ملكوت كل شيء أي بسلطانه وقدرته وتدبيره العميق كل شيء في الوجود.

أما الموضوع الآخر والأخير الذي جاء فيه التعبير القرآني للفظ اليد مصحوباً بالضمير فهو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الملك ١)، فإن تركيب "بيده" يشتمل على بعد دلالي دقيق يتعلّق بإضافة لفظ اليد إلى ضمير الغائب (هـ)، وهذه الإضافة لها أثر في توجيه المعنى بين الحقيقة والمجاز.

الأصل في الإضافة هنا أنّها إضافة ملك واختصاص؛ أي نسبة شيء إلى صاحبه. فإذا أخذت "اليد" على معناها الحقيقي (الجارحة)، لزم من إضافتها إلى ضمير الغائب إثبات عضوٍ لله تعالى، وهذا يوقع في إشكال التشبيه، لذلك يمتنع حملها على الحقيقة الحسية في هذا السياق، ومن هنا تنتقل الدلالة إلى المجاز، وعند حملها على المجاز، تصبح الإضافة إضافة صفة معنوية إلى صاحبها، فيكون الضمير (هـ) عائداً إلى الله تعالى لا بوصفه صاحب جارحة، بل بوصفه صاحب القدرة والسلطان والتصريف فتصير "يده" بمعنى: قدرته المختصة به، وسلطانه الذي لا يشاركه فيه أحد، إذا فالإضافة هنا لا تفيد مجرد النسبة، بل تفيد القصر والاختصاص، أي أنّ الملك كلّه منحصر في سلطانه وحده، وهذا يتعرّز بتقديم الجار والمجرور "بيده" على "الملك".

بعد أن بيّنا في المواضع الثلاث التي أُضيف فيها لفظ اليد إلى ضمير الغائب (هـ) نجد من الضرورة إن نشير إلى أن لفظ اليد قد ورد بصيغة المثني ، وقد أُضيفت هذه الصيغة إلى ضمير الغائب فقد وجدناه بتعبير (يداه) في قوله عز

(٣) التفسير الكبير: ج٢٦/٩٩.

علاه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَاللَّيِّنَاتُ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ الْعِدَاةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ المائدة (٦٤) وقد سبقت الإشارة إلى الحديث عن هذه الآية في موضع سابق من البحث .

وننقل إلى الموضع الذي جاء فيه هذا اللفظ مقترنا بالياء وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّئَهُ لِمَا بَدَدَ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٧)

تظهر المعاني في صورة حسية نابضة، تُقرب المعنى إلى الذهن دون أن تُفيده بحقيقة مادية، فالتعبير القرآني (بين يدي رحمته) ليس على ظاهره الحسي، فلا يُراد به يدان بالمعنى المعروف، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإنما هي مجاز مرسل، استُعير فيه لفظ (اليدي) للدلالة على التقدم والسبق والقرب؛ لأن ما يكون بين اليدين يكون أقرب الأشياء وأمامها، وذهب على هذا التفسير الطبري فقال أي أمامها وقدامها؛ لأن العرب كانت تقول قدام وأمام (٣) فصار المعنى: أن الرياح تُرسل متقدمة بين يدي نزول الرحمة، أي مقدمة لنزول المطر، ومُبشِّرةً به قبل وقوعه، وقد أُضيفت (اليدي) إلى ضمير الغائب (الياء) في (يدي رحمته) للدلالة على الاختصاص، وكأن الرحمة لها حضورٌ معنويٌّ يتقدمها إرسال الرياح، فتغدو الرياح كالبشائر التي تسبق قدوم الخير، في مشهدٍ تصويريٍّ بديع يربط بين الأسباب ومسبباتها في تسلسلٍ يوحى بالنظام الإلهي الدقيق.

ونحن نلاحظ أن السياق القرآني الذي وردت به الآيات المباركات جاء مقترناً بالأمر في الموضع الأول ، أما الموضع الآخران فجاء التعبير القرآني مصحوباً بالتسبيح لله عزَّ علاه ، أما الموضع الذي أُضيف إلى (يا المتكلم) فقد جاء في الآية الخامسة والسبعين من سورة ص متمثلاً بقوله عز من قائل: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيٍّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ، إذا تأملنا في

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٤ / ١٥٧.

هذه الآية الكريمة سنجدُ أن لفظ اليد قد ورد بصيغة المثني ، وقد أُضيف هذا اللفظ إلى ضمير المتكلم (الياء) وقد كان المتكلم الله عز علاه ولا ريب أن التعبير القرآني عندما عمد إلى الإضافة قد عنى بها علّة معينةً ، وفي التثنية معنى ؛ لذا سنقفُ عند بعض ما أملاه المفسرون لإيضاح المراد .

قال الطبري (ت ٣١٠ هـ) فيما يتعلّق باللفظ اليد إنّ الله خلق أربعةً بيده العرش ، وعدن ، والقلم ، وآدم ، ولم يذكر الطبري المعاني الثانوية التي خلق الله هذه الأشياء بيده ، لكن مما هو مسلّمٌ به أن المطلوب المعاني المجازية لليد وليس الحقيقية ، أما العلّة التي من أجلها أُضيف الخلق إليه فهي التكريم ، ولا غرابة في إضافة بعض المخلوقات إليه فقد وجدنا التعبير القرآني أضاف إلى الذات المقدسة بعض المسمّيات مثل : الروح ، البيت ، الناقة ، المساجد ، فإضافة الخلق إليه فيه من التكريم والتشريف للمخلوق ، وإذا ما تأملنا فيما أفاده صاحب الميزان سنجدُ أنه ذكر علّة التشريف والاختصاص ، فالعلتان هما المعنى المتوخى من التعبير^٤ القرآني المستتبط من الإضافة ، أما ورود اللفظ بصيغة المثني فلا يخلو من معنى ، وفي هذا الموضع قال السيد الطباطبائي مشيراً إلى معنى التثنية بقوله: ((وتثنية اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه وصنعه ، فإنّ الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله : (خلقت بيدي) كقوله : (مما عملت أيدينا) ، وقيل المراد باليد القدرة والتثنية لمجرد التأكيد)) ، ومن أقوال المفسرين أتضح لنا أن التعبير القرآني قد اختار ما يعبرُ عن مراده بأبهى صور البلاغة والبيان ليوصل معناه بطريقة إجازية ، فأراد التعبير القرآني الحقيقة حيناً والمجاز حيناً آخر جامعاً بينهما في موضع واحد ليوحى بمعاني بالقدرة والتشريف والتكريم والاختصاص مجتمعين .

أما الموضع الذي ورد فيه لفظ اليد مفرداً وأضيف إلى كاف المخاطب فقد تمثل في قوله عز علاه ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

^٢ ينظر : تفسير الطبري ٨ / ٤٥٧ .

^٢ ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٣٤ .

^٤ ينظر : الميزان في تفسير القرآن ١٧ / ٣٨ .

^٤ نفسه ١٧ / ٣٨ .

وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿آل عمران ٢٦﴾.

وعند الانتقال إلى السياق القرآني للتدبر فيه نجد أن الآية تقوم على تعداد مظاهر القدرة الإلهية: تعطي الملك، تنزع الملك، تعز، تذل، وكلها أفعال تدور حول محور التصرف المطلق في شؤون الخلق، فكان ختامها بـ"بيدك الخير" فكاف المخاطبة تعطي الملكية وهي منسجمة مع هذا النسق، أي أن الخير كله داخل تحت سلطان الله وتدبيره ومشيئته، وإلى هذا المعنى ذهب ابن كثير بقوله: ((أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد))^(٤) ومن هنا يتعين صرف لفظ "اليد" عن معناه الحسي إلى معناه المجازي، لأن حمله على الحقيقة الجارحية يقتضي التشبيه والتجسيم، وهو ممتنع في حق الله تعالى، بينما حمله على المجاز ينسجم مع أصل التنزيه ويوافق الاستعمال العربي المألوف.

مجيء لفظة (يد) بصيغة الجمع:

نقف في هذا الموضوع من البحث عند ما اعتمده التعبير القرآني من صيغ الجمع للفظ (اليد)، فمن متابعتنا لأي الذكر الحكيم وجدنا أن هذا اللفظ جُمِعَ بصيغتين هما (أيدي، وأيدينا) وسنقف عند الموضعين مع الإشارة إلى ما دُكِرَ فيهما:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٤٧)

جاء التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة بصيغة الجمع «أيدي» لإفادة التكثر والتفخيم، لا لتعدد في الذات، بل لتضخيم صورة القدرة والقوة، وذهب إلى هذا المعنى الرزازي بقوله: ((بأيدي بقوة وقدرة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قادرون. وعنه أيضا: لموسعون الرزق على خلقنا))^(٥)، وكأن هذا البناء العظیم لم يصدر عن قوّة عادية، بل عن طاقة إلهية شاملة محيطية، لا يحدها ضعف ولا يعثرها نقص، فلفظ الجمع أوحى بمعاني القدرة والقوة التي بُنيت بها السماء.

وننتقل إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (سورة يس: ٧١)

جاءت (الأيدي) هنا بمعنى ((القدرة والتعمّة، أمّا القدرة فإنّ هذا السّياق كسياق حديث النّوأس بن سمعان في خروج يأجوج، ومأجوج: "فيوحي إلى عيسى أني قد بعثت عبادا لا يدان لأحد بقتالهم"، وأمّا التعمّة فكما في قولهم (زيدٌ له عليّ يدٌ)

(٤) تفسير ابن كثير: ٥٣.

(٥) مفاتيح الغيب: ٣٠٦/٢٦.

أو (له عليّ يد طولى) ، وكذا في قوله صلى الله عليه وسلم لنسائه : "أسرعكنّ لحوقا بي أطولكنّ يداً" (٤) ،
جاءت الكلمة بصيغة الجمع (أيدينا)، وهي إضافة إلى ضمير الجمع، لا للدلالة على التعدّد الحقيقي، بل لما في هذا الأسلوب من تفخيم وتعظيم، إذ يُعبّر بصيغة الجمع عن العظمة والقدرة الكاملة، كما هو أسلوب العرب في خطاب التعظيم، فنُصِّوَرُ القدرة الإلهية وكأنها محيطة شاملة، ليزداد المعنى قوةً في النفس وهيبَةً في القلب، فهذا التحوّل من اللفظ إلى الضمير الجمعي ليس انتقالاً في الحقيقة، بل هو انتقالٌ في الأسلوب البياني؛ إذ يُستعمل التعبير ليؤدي وظيفةً معنويةً، هي تعظيم الفعل وإبراز عظمته، مع بقاء التنزيه عن أي معنى جسيمي أو تعدد في الذات.

الخاتمة

بعد الرحلة العلمية بين رياحين القرآن الكريم لمتابعة المواضع التي ورد فيها لفظ اليد بين الحقيقة والمجاز توصلَ البحثُ إلى نتائج سنذكرها في هذا الموضع .

• اتفقت كلمة الباحثين المشتغلين في علوم العربية أم علوم الشريعة الإسلامية بتفرعاتها المختلفة على ضرورة وجود قرينةٍ لصرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي فلا يصحُّ حمل اللفظ على غير معناه مع انعدام القرينة، ولم نجد أحداً خرج عن هذا المفهوم ، ولعوض الغاية في ذلك أنّ القرينة هي التي تمكّن المتلقي من إدراك المعنى المراد من اللفظ ، فبوجودها نستطيع الوقوف على معنى اللفظ وبانعدامها يصبح النص غامضاً ملتبساً لا دلالة بينةً فيه .

• وجدنا المفسرين يفسرون لفظ اليد بما ينسجم مع العقيدة الإسلامية السليمة والتي تمنع تجسيد وتجسيم الذات الإلهية المقدّسة ؛ لذا وجدناهم يلتمسون تفسيراتٍ واسعةً

(٤) أضواء البيان: ٢٨٨/٧

لفظ اليد منطلقين من المعاني المعجمية إلى المعاني السياقية ، فالسياق القرآني ركيزة أساس في تحديد المعنى .

• ظهر لنا من البحث أنّ أصحاب المعجمات اللغوية قد أطالوا الوقوف عند المعنى المعجمي لفظ اليد ، فقد أشاروا إلى أنّ معناه الجارحة وكف اليد ، أما معانيه المجازية فقد توسعوا فيها مستندين إلى ما روي عن العرب بهذا المجال ، وقد استنتجنا أن إطالة الوقوف والتوسع في المعنى كي يحيطوا بالمعاني المجازية التي ينصرف لها لفظ اليد في التعبير القرآني .

• من متابعتنا للفظ اليد في القرآن الكريم وجدنا أنه اعتمد في أربعة وثمانين موضعاً بصورة عامة ، أما المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ بما يتعلق بالذات الإلهية فقد تجسدت في اثني عشر موضعاً ، وقد تنوعت تلك المواضع بتووع المحال التي وردت فيه ، فمن خلال التتبع وجدنا صيغة المفرد والتنثية والجمع ، كما وجدنا اللفظ المجرد والمضاف ، فقد ورد لفظ (اليد) مضافاً إلى لفظ الجلالة (الله) في أربعة مواضع ، ويكاد يجمع المفسرون على أن تلك الآيات حملت تعبيراً مجازياً عنّت به الملك والقدرة والقوة ، ولا مجال لحمل اللفظ على ظاهر معنى اليد ، وقد استمدت تلك المعاني من السياق القرآني الذي وردت فيه ، ومع تعدد هذه المواضع وجدنا صوراً بيانية تجلّت فيها الأساليب البلاغية بأعلى تجلياتها ، وقد ظهر ذلك بمواضع عدّة ومن بينها التعبير القرآني (مغلولة وغلّت) حيث أستخدم اللفظ ذاته للدلالة على معنيين متقابلين ، أما إضافة لفظ اليد إلى لفظ الجلالة (الله) ففيه من التشريف والتعظيم ما لا يُنكر ، فزيادة الهيبة تتمثل باقتران لفظ اليد بلفظ الجلالة ؛ وذلك لعلو منزلة المضاف إليه فلا يدانيه بمنزلته شيء .

• لاحظنا في بحثنا أنّ التعبير القرآني جعل لفظ اليد مصحوباً بضمير الغائب وقد تمثل ذلك في أربعة مواضع ، وأريد بها معنى الملك ، وقد وجدنا أن السياق القرآني والإضافة إلى ضمير الغائب توحى بمعنى دقيق يُضاف إلى الملك وهو الاختصاص والتمكين ، فالمالك مختص بملكه ، ومتمكن منه وليس مالكاً فحسب .

نأمل أن نكون قدّمنا خدمة يسيرة لحركة البحث العلمي في مجالي اللغة والعلوم الشرعية .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أسرار البلاغة : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة (د.ت).

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة : المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

• جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ت ١٣٦٢هـ، ضبط وتوثيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت

- **كتاب العين:** أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي
البصري ، تحقيق : د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال .
- **لسان العرب :** أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، دار صادر ، ٢٠٠٣ م .
- **البحر المحيط:** محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي ت ٧٥٤ هـ
، الناشر: دار الفكر، بيروت
عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
- **التحرير والتنوير :** محمد الطاهر بن عاشور ت ١٣٩٣ هـ ، دار ابن حزم
للنشر ، تونس .
- **الجامع لأحكام القرآن:** أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ،
تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش
الناشر: دار الكتب المصيرية ، القاهرة
الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :** محمود
بن عمر بن أحمد الزمخشري ت ٥٣٨ هـ ، ضبطه وصححه ورتبه : مصطفى حسين
أحمد ، الناشر : دار الريان للتراث بالقاهرة ، دار الكتاب العربي بيروت .
- **المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع:** د. عبد العظيم المطعنى
الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة تاريخ النشر: ١٩٨٥ م .

التعبير القرآني بين الحقيقة والمجاز

(لفظ اليد مثلاً)

م.د أحمد حسن خطاب

م.د زهراء عادل جاسم

📖 **المستصفى**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

• 📖 **المفردات في غريب القرآن**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم / الدار الشامية، دمشق، بيروت.

• 📖 **الميزان في تفسير القرآن**: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

• 📖 **الوجيز في أصول الفقه الإسلامي (المدخل - المصادر - الحكم الشرعي)**، الأستاذ تاذ الدكتور محمد مصطفى الزحيا، الناشر: دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا (مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر - الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)

• 📖 **تفسير البغوي** (معالم التنزيل): أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى ٥١٦هـ، دار ابن حزم.

• 📖 **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**: عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المعروف ابن كثير المتوفى ٧٧٤هـ، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن : أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، توزيع: دار التربية والتراث - مكة المكرمة الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق أحمد شاکر (د.ت).

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيتمي (ت ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة: الأولى (د.ت).

• مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت الطبعة: الثالثة ، ١٤٢٠ هـ .

• موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، عويسيان التميمي البصري ، مصر .

